تحديات الهوية الثقافية وسط المجتمعات المتعددة

بريجة شريفة

أستاذة مساعدة تخصص علم الاجتماع بكلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير والعلوم التجارية جامعة وهران 2

مقدمـــة:

عرفت المجتمعات البشرية تطورات سواء في بنيتها الاجتماعية أو في بنيتها الاقتصادية الى أن وصلت لِمَا يُعرف بالمجتمعات الحديثة: مجتمع المعرفة، مجتمع المعلومات،مجتمعات متعددة...

وهي مجتمعات أصبحت ثقافاتها متعارفه ومتفاعلة فيما بينها ،ومتنوعة،بسبب الثورة العلمية والتكنولوجية والتطورات المذهلة في وسائل الاتصال والمعلوماتية ،وممكن ارجاع هذا التنوع الثقافي la diversité culturelle أيضا ،الى ما يسمى بالعولمة الثقافية وتحدياتها[1] challenge of globalisation التي تعمل خاصة على توحيد ثقافات العالم ووضعها على شكل قالب واحد Standardisation بصياغة ثقافة عالمية ؛ هذا الوضع أدى الى تحريك "الهوية الثقافية" التي تلعب دورها في الحفاظ على الخاصيات الثقافية للمجتمعات، والوقوف أمام آليات هذا التنوع الثقافي ،والعمل على حماية ثقافات الشعوب ،والإرث الثقافي للمجتمعات من لغة ودين وعادات ومعتقدات وتصورات وقيم وإبداعات... بهدف ضمان التماسك والاستقرار الاجتماعي، وبعث السلام والحريات الفردية والجماعية.

وفي خضم هذه الظروف، صارت الهوية الثقافية تعيش تحديات،تهددها من خلال المساس بثقافات الشعوب وخصوصياتهم، وعليه أصبحت من بين انشغالات مجالات العلوم الانسانية والاجتماعية وبعض المنظمات العالمية بهدف إعادة النظر في واقعها، وواقع الثقافات المغلوبة على أمرها.

الهوية الثقافية:

الهوية الثقافية مفهوم مُعاصر تبلور كإشكالية سوسيو-سياسية مع نهاية الخمسينيات من القرن العشرين، وبرزت كمفهوم عالمي، خاصة بالولايات المتحدة الأمريكية بظهور مشكل الأقليات les minorités ومسألة الاثنيات les ethnies ، والبحث عن وسيلة مناسبة تسمح بتوضيح المشاكل الناجمة عن اندماج المهاجرين، وظهور الصراعات الفكرية والإيديولوجية التي أصبحت تهدد ثقافات الشعوب وحضاراتهم. كما ظهرت كانشغال اجتماعي أو سياسي خاصة عندما بدأت التيارات الفكرية تنشغل وتهتم بثقافات الشعوب، بعدما كانت مُهمشة، وغير مُبرمجة في انشغالات المحافل العلمية الكبرى، ولكن أصبحت أي الهوية الثقافية بالمجتمعات وباختلاف ثقافاتهم محل اهتمام،لأنها تُعتبر كوسيلة تحمي ميراثهم الثقافي المهدد بالاندثار.

والحال ذاته بأوربا خلال الستينيات بعدما استقرت الجاليات المهاجرة للعمل بأوربا، وبدأ يظهر المناخ الثقافي الذي ميزته ظاهرة الطائفية communautarisme التي كانت تُجسد نوع من استرجاع الهوية الأصلية التي نشئوا عليها ،وتغلبت عليهم ظاهرة الانغلاق داخل جاليتهم ،الى درجة أن في بعض البلدان الأوربية تمركزوا في أحياء les Ghettos أصبحت حكرا لهم.

وشيئا فشيئاً طفت في الميدان مسألة **الهوية الثقافية** الآتية من بلدان العالم الثالث ،فتغيرت المواقف السياسية إزاءهم ،وبفضل أبحاث وأعمال سوسيولوجيين تراجعت مواقف السلطات من موقف في الادماج في المجتمع الأوربي وبدأت تعترف بخصوصياتهم بهوياتهم... فحينذاك أُعطيت انطلاقة للهوية الثقافية كإشكالية علمية.

وبالوقت الحالي تغير السياق،وأضحت ظاهرة الهوية الثقافية اشكالية سوسيو سياسية، ومحل اهتمام المُفكرين وخاصة منهم بالعلوم الاجتماعية (علم الاجتماع وعلم النفس)، فعلى سبيل المثال لا الحصر، نتصفح أعمال المفكرة **ج.فانسونو** (Genevieve Vinsonneau) التي كتبت الكثير عن هذه الاشكالية المعاصرة، وحاولت لمس كل جوانبها، وحللت أبعادها خاصة في كِتابيْها "**الهوية الثقافية**"[2] و"**العولمة والهوية الثقافية**[3]" فأَبرزت المعطيات الكبرى لهذا المفهوم الحديث، مُبَيِّنتا بأن إشكالية الهوية الثقافية لم تنحصر في مواقف نظرية لمفكرين بل احتلت عدة ميادين حساسة (السياسية الثقافية، الدينية، الأنثروبولوجية...) نظرا لما يحدث سنة بعد سنة عبر العالم من نهوض ثقافي :قيام حركات ثقافية مختلفة منها المتشبثة بأصالتها وأخرى متميزة بالتنوع الثقافي وأخرى متطرفة، وحركات

هامشية ومعارضة ومتشددة، وهناك الكثير من هذه الحركات قامت كرد فعل وناهضت لما سمته ب "الثقافة الشمولية المهيمنة" من طرف القطبين (الولايات المتحدة والإتحاد السوفياتي).

وعلى حد بحوث **فانسونو** (G. Vinsonneau) فان مفهوم "الهوية الثقافية" هو عبارة عن منتج وسيرورة جدلية جامعة للمُضادات، تسمح بظهور الخصوصيات الفردية والتوحيد الاجتماعي. ويكتسي مفهومها أيضًا عدة معاني، ففي العلوم الإنسانية والاجتماعية يدل على العلاقة الموجودة بين:

– أوّلا انتماء الفرد الى جماعته ،أي أننا نستطيع التعرف عليه بواسطة "الكتلة" الاجتماعية التي ينتمي اليها،

– وثانيا شخصيته (الفردية) أي الطريقة التي يتخذها كل فرد ليعرف نفسه بنفسه.

كما بيّنت **فانسونو** بأن ما يسمى بالهوية الجماعية التي بواسطتها يتم التعرّف على الفرد (في مكان وزمان) والهوية الفردية التي هي الإحساس الشخصي بما يُعَرِّف نفسه على وضعيته الخاصة فهاتين الصفتين للهوية مرتبطتين. كما أضافت على أَن التقسيم العلمي للتخصصات يجعل الدراسات حول الهوية الجماعية من اهتمام السوسيولوجيين والدراسات المتعلقة بالهوية الفردية من انشغال السيكولوجيين ،بينما في الواقع ،الاهتمام العلمي يكمن في تداخل وتكامل الاثنين معا.

وقد أشارت الكاتبة أيضا، بأن العصر الحالي يشهد صراعات باسم الدفاع عن الهويات، وإبراز حقائق هويات بعض الجماعات الاجتماعية التي تعمل على اثبات جذورها وتاريخها وترسم حدود لوجودها، مقابل ما يُسمى بصدمة أنواع الثقافات، فهي أي الجماعات الاجتماعية،أمام تجربة قاسية لتأسيس تشكلات هوياتية، ونظام التمثلات الأساسية للوجود.

ولتوضيح أكثر ،مفهوم الهوية الثقافية أكد بعض المختصين[4]، أنها تُعبر عن ما يسمى ب "خصوصية" مجموعة إنسانية أو شعب أو مجتمعات، وبذلك فهي "كل ما من شأنه أن يمنعنا من خلطهم في الفكر أو في تطبيق الموحدين حتى لا نمحي "الحدود" التي تفصل بينهم والتي تتمثل في أوضاعهم اللغوية، والدينية والفنون (من أدبيات وموسيقى) أو أوضاعهم السياسية... لذا تقاس الثقافات بفضل تنوعها العالمي أي "عالميتها" (universalité) وهذه العالمية تفرض، حسبهم، على الثقافات الاجتماعية نوعا من الاتصال عبر الحدود، بثقافات أخرى.

كما تُحدد الهوية الثقافية[5] بصفتها قوائم السلوك واللغة والثقافة التي تسمح لشخص أن يتعرف على انتمائه الى جماعة اجتماعية والتماثل معها...

حسب ما سبق، يتأكد لنا بان هذا المفهوم قد عرف الكثير من التعريفات، نظراً لتداخله مع الثقافة وهذا الأخير في حد ذاته مفهوم له العديد من التأويلات. فمفهوما الثقافة والهُوية مرتبطان ومع ذلك لا يمكن خلط أحدهما بالآخر، بحيث يمكن للثقافة أن تتحرك بدون وعي من الهوية وضدها في بعض الأحيان، في حين يُمكن لآليات الهُوية أن تعالج الثقافة أو تغيرها.

المجتمعات المتعددة :

قد ظهر بالوقت المعاصر مصطلح "المجتمعات المتعددة" les sociétés plurielles ويُقصد بها تلك المجتمعات التي تتعدد فيها اللغة والدين والعرق والثقافة، فهي مجتمعات متنوعة ومتعددة من حيث الأصول والأعراف والعادات واللغات..هذا النوع من المجتمعات يمثل فضاء اجتماعي واحد،تقليدياً يُعرف "بالوطن– دولة".

ان المجتمعات المتعددة الثقافات ميزة الكثير من المجتمعات، مثل الهند التي فيها الاسلام والمسيحية والسيخ والبوذية [6]، و 1652لغة، والسودان يضم الاسلام، والوثنية ،والمسيحية وهذا لبنان موطنا لستة أديان: المسلمين الشيعة والسنة والمسيحيين الموارنة والدروز والروم الأرثوذكس والكاثوليك...انها مجتمعات متعددة الثقافات والاثنيات؛ ولكن هذا "التعدد" يذكرنا بالصراعات والأزمات والعنف والأصولية، والتمييز العرقي الذي تعيشه جل المجتمعات اليوم، باسم البحث عن الوحدة الوطنية، فهل استطاعت هذه المجتمعات المتعددة الثقافات الاستثمار في التنوع الثقافي الذي تعيش فيه، والى أي مدى استطاع أفرادها العيش بتسامح مع الآخر واحتواءه والشعور بالالتزام والولاء مع أفراد المجتمع وتحقيق الرقي لمجتمعاتهم، وامتصاص الصراعات ونشر السلام!!

الهوية الثقافية والتنوع الثقافي:

تُؤمن منظمة اليونسكو UNESCO بأن القوة الدافعة المبدعة تَكمن في صميم التنوع في الثقافات (باعتباره عملية دينامية يكمن داخلها ادارة التغير الثقافي بالصورة الأفضل من خلال الحوار بين الثقافات)[7] فتَبنت السياسات الثقافية واعتبرتها كمحرك للتنوع الثقافي والاستثمار الثقافي بين الشعوب وتقدم التنوع الثقافي على أنه عامل ايجابي ،يعمل على تدعيم التماسك الاجتماعي بفرض الحريات الثقافية وحماية الثقافات، ويُعد مصدر للإبداع والتجديد الثقافي.

فاعتمدت منذ البداية بدستورها سنة 1945م التنوع المثمر في ثقافات العالم ،وتلت التقارير حول دعم فكرة التنوع الثقافي والاستثمار فيه واعتبرته بُعداً من أبعاد الحوار بين الثقافات، كما أنها لم تتجاهل تحديات هذا التنوع الثقافي ،فعملت على رصد التغيرات الجارية وتشكلها ،بهدف الكشف على رهانات هذا المشروع وطلب دعم أكبر من الدول.

وعلى الدوام عملت على تجديد فكرة التنوع الثقافي، ففي سنة 1996م عنونت تقريرها ب"تنوعنا الخلاق" ومضمونه: قبول التغير الثقافي .

وبرامج أخرى عملت الأمم المتحدة عليها ،مثل العقد العالمي للثقافة والتنمية 1988_1997م مع البنك الدولي.

وجاءت كذلك منظمة اليونسكو بمؤتمرها العالمي في دورته الحادية والثلاثون بباريس(2001م) بإعلان عزز التنوع الثقافي ودعم فكرة الحوار بين الثقافات كحل أفضل لضمان السلام ورفض فكرة النزاع بين الثقافات والحضارات ،وأهمية التنوع الثقافي الذي يعد التراث المشترك للإنسانية.[8] ومن أهم مبادئ الاعلان: التنوع الثقافي بوصفه تراثا مشتركاً للإنسانية، لأنه يُعد مصدرا للتبادل والتجديد والإبداع ومبدأ الانتقال من التنوع الثقافي الى التعددية الثقافية من أجل ضمان التفاعل المنسجم،وضمان التماسك الاجتماعي؛ ومبدأ حقوق الانسان بوصفها ضمانا للتنوع الثقافي الذي بفضله يتوسع نطاق خيارات الأفراد ومصدر للتنمية ؛والحقوق الانسانية بوصفها اطاراً ملائما للتنوع الثقافي، خاصة احترام ثقافات الأقليات والحقوق الثقافية بوصفها اطارا للتنوع الثقافي ،فكل فرد له الحرية بالمشاركة في الحياة الثقافية ؛ومبدأ نحو تنوع ثقافي متاح للجميع ؛واعتبار بأن التراث الثقافي مصدراً للإبداع ... وغيرها من المبادئ التي تصب في فكرة واحدة وهي دعم التنوع الثقافي.

وبعدما كانت تعمل اليونسكو على حفظ المواقع والممارسات والتعبيرات الثقافية ،فقد أصبحت الآن تعمل على كيفية الحفاظ على التغير الثقافي، بهدف مساعدة الشعوب على ادارة التنوع بشكل أنجع.

كما تأخذ المنظمة بعين الاعتبار التحديات الجديدة التي تواجه التنوع الثقافي والهوية الثقافية، وعلى رأسها "العولمة" وفكرتها في توحيد والتجانس الثقافي،ولكن المنظمة ترى الجانب الايجابي من العولمة والذي يتمثل في تخفيف الارتباط بين ظاهرة الثقافة وموقعها الجغرافي من خلال نقل الأحداث والتأثيرات والتجارب البعيدة وتقريبها.

وتشجع اليونسكو أيضاً، الحوار بين الثقافات والبحث عن طرق التواصل بينها،وحذف الفوارق لأن الحوار بين الثقافات يُعزز التفاعل بينها دون المساس بالهويات، عن طريق حفظ التنوع اللغوي العالمي والترويج للتعدد اللغوي والترجمة بُغية تعزيز الحوار بين الثقافات، وكذلك تشجيع التعليم التشاركي والاتصال والإبداع الفني والاقتصاد، لأنها تعتبر بأن التنوع الثقافي مصدر من مصادر تجديد استراتجيات التنمية والسلام.

هذا الدعم للتنوع الثقافي ،في نظرنا،ينطوي تحته تهديد صريح للهوية الثقافية،التي تُشير على العموم للتميز والخصوصية والانتماء ،وفي الواقع الآن ،تتداخل مع مجموعة من التخصصات والعلوم مثل علم النفس وخاصة بعلم الاجتماع المعاصر، وحتى العلوم السياسية ،باعتبارها مفهوم جديد ظهر بالسياق العالمي الذي تميز بظهور حركات ثقافية هوياتية استجابت للدفاع عن العولمة الثقافية في ظل الهيمنة الأمريكية.

فهذه الهويات الثقافية بالمجتمعات المتعددة في ظل التنوع الثقافي واللغوي خاصة، وتحت تداعيات مؤثرات عالمية واحتكاك الشعوب وتفاعل الثقافات عبر موجة المعلوماتية، قد تفقد خاصياتها وتخلق لديهم ما يسمى بالأزمة الهوياتية.

تحديات الهوية الثقافية:

تعيش الهوية الثقافية رهانات تنطوي تحت تقبل التنوع الثقافي الموجود،بكل ايجابياته وسلبياته،واحترام التنوع الاثني والتنوع البشري(Gender) والانتماءات السياسية والدينية والقناعات...هذا التنوع والتعدد الثقافي وليد التداخل والتفاعل بين الثقافات ،الذي أصبح

يهدد هويات الشعوب ،وخاصة منها تلك المتمسكة بثقافاتها التقليدية وارثها الأصيل، ومميزاتها، والتي صارت تدرك نقاط الاختلاف والتشابه مع مختلف الثقافات.

كما تعرف اليوم الهوية الثقافية تحديات أهمها: تسارع التبادلات بين المجتمعات وعولمة الاتصال ،وتطور ميادين التواصل ،والتنوع الثقافي ،والاحتكاك الثقافي ،والحركية المتزايدة..ولكن المُلاحظ بان عملية الاحتكاك/التفاعل الثقافي interculturel الناتج عن تطور المعلوماتية،والتطور تكنولوجيا الاعلام والاتصال ،وخاصة تطور وتنوع وسائل التواصل الاجتماعي الذي يُعد أهم تحدي تواجهه الهوية الثقافية، لأنه تتولد عنه تشكلات ثقافية جديدة ،وعليه فان الهويات الثقافية وعناصرها ليست بمعزل عن هذا التنوع الثقافي الجديد الناتج عن الاحتكاكات الثقافية وسط المجتمعات المتعددة ،بل تعمل أي الهوية الثقافية ضمن نظام اجتماعي، وتدافع عن الخطر الذي تعيشه ثقافة هذا النظام ،وتحارب الآخر بهدف الحفاظ على الخصوصيات الثقافية والانتماء والوجود.

ان المجتمعات المتعددة les sociétés plurielles ذات التمازج العرقي والتنوع في الأعراف والعادات ،والتنوع الثقافي تعيش أكبر التحديات التي تمس بهويتها الثقافية ،بفعل التغير،والحركية والتبادلات المتزايدة عبر تطور وسائل الاتصال والتواصل..لأن البناء الهوياتي لا يتم إلاّ بالاستعانة بمفهوم متجانس للثقافة.

كما ان تحدي التنوع الثقافي الذي زاد من وتيرته الاحتكاك الثقافي بين الشعوب، أصبح يخلق صراعات وأزمات، وأصبح يُعرف باسمه موجات ايديولوجية وعنف جماعي وفردي وأصولية ،بعدما كان التعدد الثقافي، وخاصة منه اللغوي والاثني Ethnie عبر التاريخ، نسق واحد، لا يَعرف التمييز، ومصدراً للإبداع الثقافي؛ ولكن وقع تقلب ثقافي واجتماعي، وبرزت على الساحة الكثير من المجتمعات ذات مجموعات اثنية، ودينية، وثقافية تطالب باستقلاليتها (مثل: اسبانيا بين **الباسك** و**كطالونيا** Basque et la Catalogne...) وهي خير دليل على عواقب التنوع الثقافي والاحتكاكات الثقافية بالوقت الراهن.

ولعل التحدي الجوهري الذي تُواجهه الهوية الثقافية بالوقت المعاصر،هو "ثقافة العولمة" والتي يُعنى بها "رواج المنتوجات الثقافية فوق عموم الكرة الأرضية التي جعلت العالم قرية صغيرة.." [9] .

فأمام هذا الغزو للمنتجات الثقافية العالمية ،نتساءل عن محل الهوية الثقافية الخاصة بكل جماعة اجتماعية وسط صراع لم يحسم بعد بين العولمة وما تحمله من صناعة الثقافة،وبين الخصوصيات المحلية والثقافات الفريدة –كما يسميها الانتروبولوجيون– .

وأمام هذا التمازج في الثقافات، تعيش الثقافات الانسانية العريقة منافسة مع المنتجات الصناعية الثقافية ذات النزعة العالمية ،فثقافات التقاليد مُرتهنة بخطر السوق العالمية للثروات الثقافية ؛وعليه فان هذا المأزق dilemme يؤثر على الهوية الثقافية لأن الامتثال أمام قانون الانفتاح على السوق العالمية بتحطيم الحدود الثقافية، والاصطفاف الى النموذج الأمريكي ،يُذيب الخصوصيات المحلية ويُساهم في تَجاهل التقاليد وتفسخها.

فظاهرة **عولمة الثقافة وما تحمله من رواج خليط من المنتوجات الثقافية في العالم اليوم**، والمُروجة عن طريق السمعي البصري ،هي خطر حقيقي يُهدد الهوية الثقافية، ويخلق اصطدام بين الثقافات، وتصبح الثقافة المحلية مهددة من طرف الثقافة المُهيمنة.

خـاتـمـة:

تتقلص تحديات الهوية الثقافية بالمجتمعات المتعددة الثقافات،اذا استثمر التعدد والتنوع الثقافي لصالحها ،مع التفتح على الآخر واحترامه والتعايش معه في جماعات مختلفة الديانات واللغات والعادات[10] وخلق عدالة اجتماعية ،ونشر السلام ،وتجاوب سياسات الدول مع التنوع والتعدد الثقافي ،وترك الأفراد الحرية في اختيار انتماءاتهم ،وثقافاتهم ،ونشر سياسات تشجع التعدد الثقافي ودمج مواطنيها ،ونخص الحديث على فئة المهاجرين خاصة بأوربا، ومشكل الهوية الذي يعانون منه.

وسط هذه التحديات التي تعيشها الهوية الثقافية يجب تحديد الاختيارات التي تساعدها على الدفاع عن وجودها ،والحفاظ على وظيفتها كبوصلة للأفراد والجماعات.

كما يجب استغلال سياسات التنوع الثقافي التي جاءت بها اليونسكو ،والتي تخدم المجتمعات المتعددة les sociétés plurielles وخاصة أنها لا تتنكر الى هويات الشعوب كانت ثقافية،أو دينية،أو وطنية ،أو اثنية..وتُنوه بخطر العولمة عليها وعلى خاصيات شعوبها.

ويجب استثمار التنوع الثقافي لخدمة المجتمعات المتعددة الثقافات،لأن له دور في التنمية المستدامة،عن طريق دمج آلياته في سياسات واستراتجيات التنمية بمختلف مجالاتها ،وله دور في خلق حكومات ديمقراطية ،تعترف بحقوق الانسان والحريات الثقافية.

وفي الأخير لا ننسى بأن التنوع الثقافي والاعتراف بحق الاختلاف يساعد على فك النزاعات التي تتحجج بها بعض السياسات ،بواسطة الوقوف وراء قناع الهويات.

الهوامش:

1. Wolman , B.(1989) .***Dictionary of Behavioral Science***, 2 Ed , New York
2. Vinsonneau, Geneviève : « *L'Identité Culturelle* »Armand Colin Paris 2002
3. Geneviève Vinsonneau « *Mondialisation et Identité Culturelle* » De boeck 2012 1ere Edition.. Bruxelles
4. Etienne, Balibar : « *Identité culturelle, identité nationale* » In: Quaderni. N. 22, Hiver 1994. Exclusion-Intégration : la communication interculturelle. pp. 53-65.
5. Jens-Pierre Warnier :"*La mondialisation de la culture*" Alger Casbah 1999 p14
6. Planification linguistique dans une société plurielle : le cas de l'Inde Amitav CHOUDHRY Indian Statistical Institute Calcutta, Inde
7. Résolution 57/249 de l'ONU en date du 20 mars 2003
8. Rapport mondial de l'UNESCO «*Investir dans la diversité culturelle et le dialogue interculturel*" Paris 2009
9. Jens-Pierre Warnier :"*La mondialisation de la culture*" Alger Casbah 1999
10. اغتيال المناضل "المهاتما غاندي" من طرف الهندوسيين المتعصبين،عندما لم ترق دعوات غاندي لأغلبيتهم ،باحترام حقوق الأقلية المسلمة ،واعتبرها البعض منهم خيانة عظمى .